شرح كتاب التوحيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لـــه، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

¼((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَآمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسلِمُونَ))

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالأَرحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيكُم رَقِيبًا))

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَآمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَقُولُواْ قَولًا سَدِيدًا () يُصلِح لَكُم أَعمَالَكُم وَيَغفِر لَكُم ذُنُوبَكُم وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَد فَازَ فَوزًا عَظِيمًا))

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هديُ محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ولما كان إمام الحنفاء إبراهيم ومحمد بن عبدالله سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين أعلم بالله كان خوفهم أشد وأعظم وطلبهم من الله النجاة أكثر. قال الخليل عليهم السلام: ((وَاجنُبنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبُدَ الأَصنَامَ)).

الخليل هو إبراهيم عليه السلام وقد وصفه الله بأنه كان أُمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، فمن كان على هذه الحال، هل يطمئن من أنه لن يعبد غير الله؟ ولن يعبد الأصنام؟ أم يظل على خوفه؟ حال الكمّل الذين حققوا التوحيد هل هم يطمئنون أم يخافون؟

الخليل: من الخُلة وهي أعلى درجات المحبة، أي: أن الله يحبه أعلى المحبة، وهذه المرتبة لم ينلها إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

س: ما معنى إبراهيم ..؟

في السرياتية معناه: أبٌ رحيم.

قوله: ((وَاجنُبنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبُدَ الأَصنَامَ)) .

قيل المراد: إسماعيل وإسحاق، وقيل: المراد: ذريته وما توالد من صلبه وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم فلم يجب الله دعاءه.

وأيضاً يمنع من الأول أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.

قوله: ((أَن نَّعبُدَ الأَصنَامَ)).

س: ما هي الأصنام ..؟

الصنم: هو ما كان على صورة مما يُعبد من دون الله، يُصور صورة على شكل وجه رجل، أو شكل جسم حيوان، أو رأس حيوان، أو على شكر صورة كوكب أو نجم، أو على شكل الشمس والقمر ونحو ذلك، فإذا صوّر صورة فتلك الصورة يقال لها صنم.

والوثن: هو ما عبد من دون الله مما هو ليس على شكل صورة؛ فالقبر وثن ولي بصنم، ومشاهد القبور عند عبّادها هذه أوثان وليست بأصنام، وقد يُطلق على الصنم أنه وثن كما قال جل وعلا في قصة إبراهيم في سورة العنكبوت ((إِنَّمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوثَانًا وَتَخلُقُونَ إِفكًا)) . قد يُطلق على قلة، وقال بعض أه العلم هم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأوثان جميعاً، فصار ف يبعض الآيات ذكر الأصنام لعبادتهم الأصنام، وفي بعض الآيات ذكر الأوثان لعبادتهم الأوثان، والأول أظهر؛ لأنه قد يطلق على الصنم أنه وثن، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد**» فدعا الله ألا يجعل قبره وثناً، فصار الوثن ما يُعبد من دون الله مما ليس على هيئة صورة .

إذن الصنم: ما كان مصوراً على أي صورة.

والوثن بخلافه كالحجر والبنية وإن كان الوثن يطلق على الصنم.

وإن اجتمعا فالصنم على المصور والوثن على غير المصور. وفي حاشية ابن القاسم (50) قال بعض العلماء: كل ما عُبد من دون الله، بل كل ما يشغل عن الله يقال له صنم.

قولـــه: ((وَاجنُبنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعبُدَ الأَصنَامَ () رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضلَلنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ)) .

هذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام خاف الشرك، وخاف عبادة الأصنام فدعا الله بهذه الدعوة، فكيف بمن دون إبراهيم ممن ليس من السبعين ألفاً وهم عامة هذه الأمة ؟

والواقع أن عامة الأمة لا يخافون من الشرك، فمن الذي يخاف؟ هو الذي يسعى في تحقيق التوحيد.

قال إبراهيم التيمي رحمه الله – من سادات التابعين – لّما تلا هذه الآية قال: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم. إذا كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي حقق التوحيد، وهو الذي وُصف بما وصف به، وهو الذي كسر الأصنام بيده، ويخاف ..؟ فمن يأمن البلاء بعده ؟

فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به.

وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه؟ فقال: الرياء. يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟**».

س: ما معنى الرياء ..؟

الرياء: مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي والمصدر رياء، وهو أن يعمل العمل ليراه الناس، لا لله، فيتصنع أمام الناس بالتقوى والعمل الصالح، وإتقان الصلاة وغير ذلك، من أجل أن يمدحوه، ويثنوا عليه، وقد

يكون سماعاً أي: يقصد بعمله أن يسمعه الناس، فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب.

فالرياء: أن يعمل العبادة يريد من الناس أن يمدحوه عليها.

أما إن أراد أن يقتدوا به فيها فليس رياءً بل هذا من الدعوة إلى الله، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي».

والرياء شرك خفي، لأن الشرك على نوعين: شرك ظاهر وشرك خفي.

الشرك الظاهر: الذي يتمثل في الأقوال و الأعمال، بأن يدعوا غير الله أو يذبح لغير الله أو يستغيث بغير الله، هذا ظاهر يراه الناس ويسمعونه لكن هناك شرك خفي لا يدري عنه الناس، لأنه في القلب، لا يعلمه إلا الله، وهو الشرك في النية والإرادة، فالإنسان إذا سَلِم من الشرك الأكبر فإنه قد لا يسلم من الشرك الأصغر الذي يكون في القلوب.

والرياء قسمان: رياء المسلم ورياء المنافق.

1- رياء المنافق: رياء في أصل الدين، يعني رَاءَ بإظهار الإسلام وأبْطَنَ الكفر قال جل وعلا ((يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذكُرُونَ اللهَ إلَّا قَلِيلًا)) ، والرياء من صفات المنافقين قال جل وعلا ((إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم)).

2- رياء المسلم الموحد: أن يُحسِّن صلاته من أجل نظر الرجل، أو أن يُحسِّن تلاوته لأجل التسميع؛ أن يمدح ويسمع لا لأجل التأثير.

والرياء مع العبادة على ثلاثة أضرب:

1- يكون محبطاً لأصل العمل الذي تعبّد به إذا ابتدأ النية بالرياء، يعني فيما لو صلى دخل الصلاة لأجل أن يُرى أنه يصلي، ليس عنده رغبة في أن يصلي الراتبة، لكن لما رأى أنه يُرى ولأجل أن يُمدح بما يراه الناس منه صلى، فهذا عمله يعني تلك الصلاة حابطة ليس لها ثواب ويعذب بها، قال تعالى: ((إِنَّ اللهَ لَا يَغفِرُ أَن يُشرَكَ بِهِ)).

2- أن يكون طارئاً على العبادة، أي أصل العبادة لله لكن طرأ عليها الرياء. كما قال صلى الله عليه وسلم : «قال الله تعالى: أنا أغنَى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

وهذا ينقسم إلى قسمين:

1- أن يدافعه فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة ثم جاء أُناس في الركعة الثانية فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه فإنه لا يضربه، لأنه قام بالجهاد.

وإن استرسل معه فكل عمل ينشأ عن الرياء فهو باطل كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا ..؟

لا يخلو هذا من حالين:

1- أن يكون آخر العبادة مبنياً على أولها بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها فهي كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة: فالصلاة مثلاً لا يمكن أن يفسد آخرها، ولا يفسد أولها إذا تبطل الصلاة.

2- أن يكون أو العبادة منفصل عن آخرها بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء فهو صحيح، وما كان بعده فهو باطل. مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال فتصدق بخمسين لله بنية، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء، فالأولى مقبولة، والثانية: غير مقبولة، لأن أولها منفك عن آخرها.

إذن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي**» فهو أخوف الذنوب على هذه الأمة، لماذا خافه عليه الصلاة والسلام. وكان أعظم الذنوب خوفاً؟

1- لأجل أثره وهو أنه لا يُغفر.

2- ولأج لأن الناس قد يغفلون عنه، فلهذا خافه عليهم صلى الله عليه وسلم .

3- والشيطان حرصه على أهل التوحيد أن يدخل فيهم الشرك الأصغر من جهة الرياء، ومن جهة الأقوال والأعمال والنيات، أعظم من فرحه بغير ذلك من الذنوب.

قال صلى الله عليه وسلم : «**لا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**».

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب ؟؟

خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله.

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة ابن اليمان عن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الشرك أخفى من دبيب النمل، قال أبو بكر: يا رسول الله وهل الشرك إلا ما عُبد من دون الله، أو ما دُعي مع الله؟ قال: ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل. وفيه «أن تقول أعطاني الله وفلان والندّ أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان**».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار**» رواه البخاري.

س: ما معنى من دون الله ..؟

لفظ (من دون الله) يكثر في القرآن والسنة و ((مِن دُونِ الله)) عند علماء التفسير وعلماء التحقيق يراد بها شيئان:

1- أن تكون بمعنى مع، ((مِن دُونِ الله)) يعني مع الله، وعبّر عن المعية بلفظ ((مِن دُونِ الله)) لأن كل من دُعي مع الله فهو دون الله جل وعلا فهم دونه، والله جل وعلا هو الأكبر هو العظيم وفي هذا دليل على بشاعة عمله.

2- أن قوله ((مِن دُونِ اللهِ)) يعني غير الله؛ «من مات وهو يدعو من دون الله» يعني وهو يدعو إلهاً غير الله، فتكون «من دون الله» يعني أنه لم يعبد الله وأشكر معه غيره؛ بل دعا غيره استقلالاً فشملت من دون الله الحالين: من دعا الله ودعا غيره، ومن دعا غير الله وتوه إليه استقلالاً.

س: ما معنى نداً ..؟

الند: الشبيه، يقال: فلان ند فلان، ونديده، أي مثله وشبهه.

قال تعالى((فَلَا تَجعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُم تَعلَمُونَ)) .

فإن الله هو المستحق للعبادة لذاته؛ لأنه المألوه المعبود الذي تأله القلوب وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد وما سواه فهو مفتقر إليه مقهور بالعبودية له تجري عليه أقداره وأحكامه فكيف يصلح أن يكون نداً ((وَجَعَلُواْ لَهُ مِن عِبَادِهِ جُزءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ)) وقولـــه: ((إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ إِلآ ءآتِي الرَّحمَنِ عَبدًا)) .

وقيل: قوله: (يدعون من دون الله نداً).

أي: يتخذ لله نداً سواء دعاه دعاء عبادة أم دعاء مسألة لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

1- دعاء عبادة مثاله: الصوم، والصلاة، وغير ذلك من العبادات فإذا صلى الإنسان فقد دعا ربه بلسان الحال أن يغفر له، وأن يجيره من عذابه، وأن يعطيه من نواله، وهذا في أصل الصلاة كما أنها تتضمن الدعاء بلسان المقال.

ويدل لهذا القسم قوله تعالى: ((وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعُونِي أَستَجِب لَكُم إِنَّ الَّذِينَ يَستَكبِرُونَ عَن عِبَادَتِي سَيَدخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)) فجعل الدعاء عبادة وهذا القسم كله شرك فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد كفر كفراً مخرجاً له عن الملة، فلو ركع لإنسان، أو سجد لشيء يعظمه كتعظيم الله في هذا الركوع، أو السجود لكان مشركاً، ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم ، من الانحناء عند الملاقاة لما سئل عن الرجل يلقى أخاه أن ينحني له؟ قال: لا. خلافاً لما يفعله بعض الجهال إذا سلم انحنى، فيجب على كل مؤمن بالله أن ينكره؛ لأنه عظمك على حساب دينه.

2- دعاء المسألة: فهذا ليس كله شركاً بل فيه تفصيل، فإن كان المخلوق قادراً على ذلك فليس بشرك كقولك: اسقني ماء لمن يستطع ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**من دعاكم فأجيبوه**).

وقال تعالى ((وَإِذَا حَضَرَ القِسمَةَ أُوْلُواْ القُربَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينُ فَارزُقُوهُم مِّنهُ)) .

فإذا مدّ الفقير يده وقال: ارزقني، أي: أعطني فهو جائز كما قال تعالى: ((فَارزُقُوهُم)) وأما إن دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله فإن دعته شرك مخرج عن الملة.

مثال ذلك: أن تدعو إنساناً أن ينزل الغيث معتقداً أنه قادر على ذلك، والمراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**من مات وهو يدعو** ..» المراد الندّ في العبادة، أما الندّ في المسألة ففيه التفصيل السابق ذكره.

يقول ابن القيم رحمه الله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهرٌ ذا القسم ليس بقابل الغفرانِ

وهو اتخاذ الندّ للرحمن أيّاً كان من حجر ومن إنسانِ
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه لمحبة الديّانِ

واعلم أن اتخاذ الندّ على قسمين:

1- أن يجعله لله شريكاً في أنواع العبادة أو بعضها وهو شرك أكبر.

2- ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: «ما شاء الله وشئت»، «ولولا الله وأنت»، وكيسير الرياء، فقد ثبت أن النبي لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت قال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده» . رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد.

وفي هذا الحديث وعيد شديد لمن يدعو غير الله لا يكون إلى على نكد ومضرة في الدنيا لأن الذي يدعوه لا يستجيب لـــه ولا يتولاه وفي الآخرة يعاديه ويجحد عبادته ودليله: ((إِن تَدعُوهُم لَا يَسمَعُواْ دُعَائَكُم وَلَو سَمِعُواْ مَا استَجَابُواْ لَكُم وَيَومَ القِيَامَةِ يَكفُرُونَ بِشِركِكُم)) .

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لّما بعث معاذاً إلى اليمن قال لـــه: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله – وفي رواية: إلى أن يوحّدوا الله – فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه.

قال الحافظ: «كان بَعثُ معاذٍ إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبي ، وقيل: كان ذلك في آخر سنة تسع عند مُنصرفه صلى الله عليه وسلم من تبوك» رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك. وأخرجه ابن سعد في الطبقات عنه واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم توجه إلى الشام فمات بها».

س: لماذا بَعث النبي معاذاً إلى اليمن ؟

قال شيخ الإسلام: «ومن فضائل معاذ رضي الله عنه: أنه × بعثه إلى اليمن مبلغاً عنه، ومفقهاً، ومعلماً، وحاكماً».

مجموع فتاوى شيخ الإسلام (10/10).

وفيه مشروعية بعث الإمام الدعاة إلى الجهات يدعون إلى الله، بل يتعين عليه بتأكد.

قولـــه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن» قولـــه (بعث) أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم، والحاكم والداعي، بعثه هو وأبا موسى الأشعري – رضي الله عنهما – بعث معاذاً إلى صنعاء

وما حولها، وأما موسى إلى عدن وما حولها وأمرهما: «أن اجتمعا وتطاوعا، ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وذكّرا ولا تنفرا».

قوله: (لَّما) إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود.

قوله: (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب)

قال ذلك مرشداً لـــه، وهذا دليل على معرفته صلى الله عليه وسلم بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم فله طريقان:

1- الوحي. 2- العلم والتجربة.

قوله (مِن) بيانية (الكتاب) التوراة والإنجيل.

قال القرطبي: (يعني به اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم).

قال العلماء في قولـــه صلى الله عليه وسلم : (إنك تأتي قوماً أهل كتاب) فيه توطيد وفيه توطئة للنفس أن يهيئ نفسه لمناظرتهم، ومعاذ بن جبل من العلماء بدين الإسلام ومن علماء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ويحشر يوم القيامة قبل العلماء برتوة.

وأخبره النبي بذلك لأمرين:

1- أن يكون بصيراً بأحوال من يدعو.

2- أن يكون مستعداً لهم لأنهم أهل كتاب عندهم علم.

ليسوا كسائر العرب فقد أوتوا علوماً في أصول الأديان وفروعها.

قال الحافظ ابن حجر (هي كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها).

قوله: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله):

هذا موطن الشاهد وهو أن النبي أمر معاذاً إذا دعا أن يكون أول الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وفسرتها الرواية الأخرى للبخاري في كتاب التوحيد من صحيحه قال (أن يوحدوا الله).

فالمراد بذلك العلم والعمل بما دلت عليه من إفراد الله بالعبادة، بخلاف من قال أول واجب النظر في الوجود، أو القصد إلى النظر فلا واجب على المكلفين أعظم من التوحيد علماً وعملاً ومن أدلته هذا النص وغيره، وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسل واتفقت الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، وإذا لم يتكلم مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان؛ لأن الشاهد مخبر عن علم، وهذا المقام لا يكفي فيه الإضمار بل لابد من علم وقبول وإقرار وإذعان، أي: انقياد، فلو اعتقد بقلبه، ولم يقل بلسانه أشهد أن لا إله إلا الله، فقد قال شيخ الإسلام: إنه ليس بمسلم بالإجماع حتى يقول؛ لأن كلمة أشهد تدل على الإخبار، والإخبار متضمن للنطق فلابد من النطق، فالنية فقط لا تجزئ ولا تنفعه عند الله حتى ينطق، والنبي قال لعمه أبي طالب «قل» ولم يقل اعتقد أن لا إله إلا الله.

وفيه أن التوحيد أول واجب، والنبي أخذ يدعو إلى التوحيد عشر سنين كلها في الدعوة إلى التوحيد والنهي عن ضده.

س: هل كان اليهود والنصارى يشكون بألوهية الله ؟

كانوا يقولون لا إله إلا الله لكن جهلوا معناها الذي دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه. فكان قولهم لا إله إلا الله لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليداً للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون فلم يدخلهم في الإسلام كما قال تعالى: ((قُل لِمَنِ الأَرضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُم تَعلَمُونَ)) . وقوله: ((وَمَن يُدَبِّرُ الأَمرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُل أَفَلاَ تَتَّقُونَ)).

وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير، وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد فلم يدخلهم في الإسلام لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه،

قال تعالى: ((قُل يَا أَهلَ الكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَينَنَا وَبَينَكُم)) فهذا التوحيد هو أصل الإسلام.

س: ما معنى شهادة أن لا إله إلا الله ؟

جاء في رواية البخاري: «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله».

إذن فشهادة أن لا إله إلا الله معناها توحيد الله بالعبادة.

والتوحيد: التخصيص والإفراد أي يفردوا الله بالعبادة، ويتركوا إلهية أو تأليه ما سواه فإذا قالوا: لا إله إلا الله لكنهم لم يوحدوا الله بل قالوها وأشركوا لم تنفعهم؛ لأن قول: لا إله إلا الله يستدعي أن يوحدوا الله ويخلصوا له العبادة.

ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة ((أَنِ اعبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّن إِلَاهٍ غَيرُه)) .

قال تعالى: ((وَمَا أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لَآ إِلَاهَ إِلَّا أَنَاْ فَاعبُدُونِ)) .

وليس من أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض فهذا إيمانهم.

ولابد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها:

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للشك.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

س: ما هي أقسام الناس في النطق بلا إله إلا الله ؟

1- من قالها بلسانه وأقرها بقلبه وعمل بالإسلام بجوارحه فذلك المؤمن.

2- وإن قالها بلسانه دون قلبه فهو ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان.

3- وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء.

وفيه أن الإنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى «لا إله إلا الله» أو يعرفه ولا يعمل به.

قولـــه: (فإن هم أطاعوك) أي شهدوا وانقادوا لذلك وكفروا بما يُعبد من دون الله.

قوله: (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات).

وهنا فائدة للداعية:

ثنَّى بالأعمال بعد التوحيد لأنها لا تصح بدونه، فهو شرط لصحة جميع الأعمال.

التدرج في الدعوة بالأهم فالمهم، وهذا أدعى للقبول.

وفيه أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين.

قال النووي: (إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام. ولا يلزم من ذلك ألا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة، والصحيح: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه. وهذا قول الأكثرين) ا.هـــ. والدليل قولـــه تعالى((قَالُواْ لَم نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ () وَلَم نَكُ نُطعِمُ المِسكِينَ () وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ)).

قوله: (فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم).

فيه: دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء، وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية.

وقيل: «فيه دليل أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة، وقرنها الله بالصلاة في أكثر من ثمانية مواضع من كتابه منها((وَمَآ أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعبُدُواْ اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُؤتُواْ الزَّكَاةَ)) . وعن ابن مسعود مرفوعاً: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم».

وفيه: أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه أو نائبه فمن امتنع من أدائها إليه أُخذت منه قهراً.

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غني، ولا إلى كافر غير المؤَلَّف، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون على الراجح.

قوله: (وإيّاك وكرائم أموالهم)

إيّاك: للتحذير، وكرائم: مفعول به منصوب لفعل محذوف تقديره أحذرك كرائم أموالهم، وهي جمع كريمة.

قال صاحب المطالب: (هي الجامعة للكمال الممكن في حقها: من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف).

وهي خير المال وأنفسه وأكثره ثمناً.

وفيه: أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال، بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بالكريمة فهو أفضل.

قولـــه: (واتق دعوة المظلوم) أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم، وهذان الأمران يقيان من رُزقهما من جميع الشرور في الدنيا والآخرة. وهذا القول أيضاً يدل على أن العامل إ ذا زاد على المشروع صار ظالماً لمن أخذ ذلك منه، ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها، وفيه التحذير من الظلم مطلقاً فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق ولا يحابي بترك شيء منه، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين.

جاء في الحديث وحسنه الألباني (767) : «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه».

قال صلى الله عليه وسلم : «أن من كلف معاهداً بما يشقُ عليه كنت خصمه يوم القيامة».

المعاهد: الذميّ.

وفي البخاري عن جابر بن سمرة في حديث شكوى أهل الكوفة لسعد بن أبي وقاص بأنه لا يحسن أن يصلي فأرسل عمر معه رجلاً، فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه ويثنون عليه معروفاً، حتى دخل مسجد لبني عبس فجلس فسأل عن سعد بن أبي وقاص فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة يكنى أبا مسعدة فقال: إذا نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل بالقضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً قام رياء وسمعة فأطل عمره وأطل فقره وعرضه للفتن، فكانوا يقولون بعد سقوط حاجباه على عينيه يغمز الجواري بالأسواق، ويقول إذا سئل: شيخ كبير أصابتني دعوة سعد.

قال صلى الله عليه وسلم : «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه..».

وقال صلى الله عليه وسلم : «خمس ليس لهن كفارة وذكر منها بهت المؤمن ..».

وفيه: تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قولـــه: (فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن.

أي: فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها.

وفي الحديث أيضاً: قبول خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به، وبعث الإمام العمال لجباية الزكاة، وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمر بتقوى الله تعالى، ويعلمهم وينهاهم عن الظلم، ويعرِّفهم سوء عاقبته. والتنبيه على التعليم بالتدريج.

ويبدأ بالأهم فالأهم.

س: لِمَ لَمْ يذكر الصوم والحج ..؟

1- أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتين، ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي؛ ولهذا لم يذكر وجوب الحج كعامة الأحاديث، إنما جاء في الأحاديث المتأخرة.

2- أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم: فإما أن يكون قبل فرض الحج وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه.

3- وأما الصلاة والزكاة فلهم شأن ليس لسائر الفرائض؛ ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليها؛ لأنهم عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، وهو صلى الله عليه وسلم يذاكر في الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم، وإن كان واجباً كما في آيتي براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس.

4- وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم؛ لأنه تبع وهو باطن، ولم يذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، ولا يجب في العمر إلا مرة.

قولـــه: (أخرجاه) أي البخاري ومسلم، وأخرجه أيضاً أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

ولها عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يُعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يعطاها. فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتي به فبصق في عينيه، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حُمر النعم».

«يدوكون» أي: يخوضون.

هذا الحديث قاله النبي يوم خيبر، في سنة سبع من الهجرة، وخيبر هي البلدة التي بقرب المدينة وهي مشهورة باسمها إلى الآن، وكان أهلها من اليهود ولما أجلى النبي بني قينقاع وبني النضير نزل كثير منهم بخيبر على قوم من أهلها، ولما كانوا بقرب المدينة كانوا يصالحون المسلمين على ترك القتال، ولكنهم كثيراً ما كانوا ينقضون الصلح، ومن ذلك نقض الصلح يوم الأحزاب.

ويوم الأحزاب هو اليوم الذي جاء فيه الكفار والمشركون لمحاربة المسلمين بالمدينة فنقض أهل خيبر العهد والصلح فلما لم يكن عهد ولا صلح غزاهم النبي وأصحابه على بلادهم وقد خرجوا بمساحيهم فرأوه، قالوا: محمد والله، محمد والخميس، يعني: الجيش؛ فقال النبي : «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، فنزل بهم وحاصرهم نحواً من نصف شهر أو أكثر حتى أعانه الله، وفتح أكثر حصونهم بالغلبة والقوة وحصنين أو ثلاثة بالصلح، وفي ليلة من الليالي والرسول محاصر خيبر أخبر أنها ستفتح غداً بقوله: «لأعطين الراية ....».

قال الرسول هذا الكلام على وجه البشارة بحصول الفتح، فهو علم من أعلام النبوة، لإخباره عنه قبل حصوله.

وخيبر حصن لليهود شمالي الحجاز وكان به مزارع ونخيل. وفي المثل: كجالب تمراً لخيبر.

قال حسان بن ثابت:

إنا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضعٍ تمراً إلى أهل خيبر

قولـــه (قال يوم خيبر) وفي الصحيحين عن مسلمة بن الأكوع قال: «كان علي رضي الله عنه قد تخلف عن النبي في خيبر، وكان أرمد، فقال أنا أتخلف عن رسول الله ؟ فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها، قال صلى الله عليه وسلم : لأُعطين الراية – أو ليأخذن الراية – غداً رجلاً يحبه الله ورسوله – أو قال: يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فإذا نحن بعلي وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله الراية ففتح الله عليه».

وما نرجوه: لم نكن نظن أنه سيأتي.

قوله: (لأعطين الراية)

س: ما معنى الراية ..؟

الراية علم الجيش، يرجعون إليه عند الكر والفر جمعها رايات، وكذا لواء الجيش علمه، وهو دون الراية، سمي لواء لأنه يلوى لكبره فلا ينشر إلا عند الحاجة.

وقد جاء في بعض الرواية (راية). وفي بعضها (لواء) وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادف الراية واللواء.

روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس: كانت راية رسول الله سوداء، ولواؤه أبيض، وعن أبي هريرة رضي الله عنه مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا الحديث في إسناده ضعف.

واسم راية رسول الله العقاب.

وقيل (الراية) العلم وسمي راية لأنه يُرى وهو ما يأخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

واللواء قيل: إنه الراية، وقيل: ما لوي أعلاه، أو لوي كله، فيكون الفرق بينهما: أن الراية مغلولة لا تطوى واللواء يطوى أعلاه، أو كله والمقصود منها المعرفة ولهذا يسمَى علماً.

قوله: (يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله).

والمحبة مواطأة القلب على ما يرضي الرب، وأصلها الميل إلى ما يوافق المحب، وفيه فضيلة علي رضي الله عنه، وزيادة منقبته لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بذلك بخصوصه.

قال شيخ الإسلام: «ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة؛ فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذين لا يتولونه، أو يُكفرونه أو يُفسقونه كالخوارج، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول في عليّ مثل ذلك لكن هذا باطل؛ فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً). وفيه: إثبات صفة المحبة، خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم.

وفي صحيح مسلم «لما دنا علي من حصونهم اطلع عليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت ..؟ قال: علي. قال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى.

فائدة كانوا يستبشرون بالأسماء.

قوله (يفتح الله على يديه)

أخبرهم صلى الله عليه وسلم على وجه البشارة بحصول الفتح، وكان قد اشتد عليهم الحصار، فهو علم من أعلام النبوة، لإخباره عنه قبل وقوع في وقت مخصوص، فوقع طِـــبق ما أخبر به .

قوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم).

باتَ، البيتوتة هي المكث في الليل معه نوم أو ليس معه نوم؛ (بات الناس يدوكون ليلتهم) يعني يخوضون في تلك الليلة، باتوا يعني ظلوا ليلاً يتحدثون من دون نوم لشدة الفضل الذي ذكره عليه الصلاة والسلام، وفيه حرص الصحابة على الخير، واهتمامهم به، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان، فينبغي التنافس في الخير، وعلو الهمة في طلبه.

قولـــه: «فلما أصبحوا غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يعطاها».

وفي رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال: (ما أحببتُ الإمارة إلا يومئذٍ).

قال شيخ الإسلام: «إن في ذلك شهادة النبي لعلي بإيمانه باطناً وظاهراً وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله، ووجوب موالاة المؤمنين له. وإذا شهد النبي لمعيّن بشهادة، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ومثل ذلك الدعاء، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير، ويدعو لخلق كثير، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس وعبدالله بن سلام وإن كان شهد بالجنة لآخرين والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الخمر » ا.هـــ.

وفيه «جواز الحرص والاستشراف للأعمال التي تدعو إلى الخير ويكون صاحبها قائداً إليه ولهذا قال يوسف ((اجعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرضِ)) ولم يكن ذلك من إطراء النفس ومدحها المكروه.

وقال إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما قال له ربه((إِنِي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ)) ولم يكن نبي ولا رسول بعده إلا كان من ذريته إلا أن الله أخبر أنه لا ينال عهده الظالم منهم.

قوله: (فقال: أين علي بن أبي طالب ؟)

فيه سؤال الإمام عن رعيته؛ وتفقد أحوالهم.

قوله: (فقيل: هو يشتكي عينيه) أي من الرمد كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال: (ادعوا لي علياً فأُتي به أرمد).

قوله: (فبصق) أي: تفل.

قوله: (ودعا له فبرأ) أي عوفي في الحال عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر.

وعند الطبراني من حديث علي (فما رمدتُ ولا صعدتُ منذ دفع النبي الراية).

قوله: (فأعطاه الراية).

فيه: الإيمان بالقدرة لحصولها لمن لم يسع، ومنعها عمّن سعى.

وفيه: أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل.

قوله: (فقال انفذ على رسلك).

أي برفق من غير عجلة.

قوله: (حتى تنزل بساحتهم).

الساحة هو ما قرب من حصونهم.

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) هذا هو شاهد الترجمة وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا معتمدهم ومرادهم ونيتهم، قال شيخ الإسلام: (دين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب، والخضوع لله وحده بعبادته دون ما سواه، فمن عبده وحده وعبد معه إلهاً آخر لم يكن مسلماً، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، وأما الإيمان فأصله تصديق القلب وإقراره ومعرفته) ا.هـ.

وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام، والدخول فيه وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، وإن كانوا قد دعوا قبل ذلك، فيندب إعادة الدعوة، ليعلم المشركون أن قصد المسلمين لهم بالدعوة والقتال هو دخولهم في الإسلام، ليس المراد التشفي منهم، وأخذ أموالهم لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً، لأن النبي أغار على بني المصطلق وهم غارون، فالدعوة دعوتان:

1- واجبة وهي دعوة التبليغ. 2- ومندوبة وهي تبليغهم قبل القتال، كما فعل علي رضي الله عنه.

قوله: (وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه).

حق الله: التوحيد.

فالنطق بالشهادتين سبب العصمة، لا أنه نفس العصمة، أو هو العصمة لكن بشرط العمل. فإن لله حقوقاً في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلماً، وفيه أيضاً بعث الإمام الدعاة إلى الله كما فعل النبي وخلفاؤه؛ قال عمر: والله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم.

ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله ما نعي الزكاة: (كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» . قال أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها».

وفيه: بعث الإمام الدعاة إلى الله تعالى، كما كان النبي وخلفاؤه الراشدون يفعلون.

قولـــه: (فوالله لأن يهدي بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم).

و[حُمْر] بضم المهملة وسكون الميم جمع أحمر.

و[حُمُر] بضم المهملة وضم الميم جمع حمار.

[النعم] الإبل الحمر وهي أنفس أموال العرب.

قال النووي: (وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام؛ وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها).

وإنما عبر بحمر النعم لأنها أنفس أموال العرب إذ ذاك. وكانوا يضربون بها المثل، والمراد خير من الدنيا وما عليها، وفيه الترغيب في الدعوة إلى الله لتحصل للداعي هذه الفضيلة بهداية رجل واحد، ولهذا حلف النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ولو لم يحلف، ترغيباً في هذا العمل وحضاً عليه، ولو لم يهتد بالدعوة إلا رجل واحد، فكيف بهداية الفئام، كما وقع للمصنف رحمه الله وغيره من أئمة الدين.

ولهذا كانت الدعوة إلى الإسلام يجب أن تكون في أصله وهو التوحيد وبيان معنى الشهادتين، ثم بيان المحرمات والواجبات؛ لأن أصل الأصول هو المقدّم فهو أول واجب.

والآية في سورة يوسف فيها بيان أن كل الصحابة دعاة إلى الله جل وعلا. وحديث معاذ فيه أن معاذاً كان من الدعاة إلى الله وكذلك حديث سهل بن سعد الذي فيه قصة علي فيه الدعوة إلى الإسلام.

فيكون هذان الحديثان كالتفصيل في قوله في الآية: ((أَدعُواْ إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)) . فالدعوة على بصيرة هي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله إلى أن يوحدوا الله، الدعوة إلى الإسلام وما يجب على العبادة من حق الله فيه.